واللسان العربى المبين يتجنب اللبس فى الحركات الأصلية كما يتجنب اللبس فى الحروف الساكنة ، فلا لبس بين الفتح والضم والكسر والسكون ، وإذا وقعت الأمالة بين حركتين لم تكن وجوبًا قاطعًا تثبته الحروف ، بل كان قصاراه أنه نمط من أنماط النطق يشبه العادات الخاصة عند بعض الأفراد أو بعض الجماعات فى أداء الحركة وإشباعها أو قصرها ، كيفما كان رسم الحرف فى الكلام المكتوب وكيفما كان جوهره المميز فى الكلام المسموع .

* * *

فإذا قال قائل إن فصاحة النطق مزية نادرة تمتاز بها اللغة العربية فليست هى دعوى من دعاوى الفخر والأنانية ، ولكنها حقيقة يقررها علم وظائف الأعضاء . لأن جهاز النطق فى الإنسان وظيفة معروفة ، ولاخفاء بالفرق بين تقسيماته التى تستوفى الأداء وتميز الحروف والمخارج وبين تقسيماته التى تعطل بعض الأداء ويعرض فيها اللبس والتلفيق لما تؤديه ، فإن الحكم فى ذلك كالحكم على كل أداة ناطقة أو عازمة من أدوات الأنغام والأصوات .

* * *

وبقى أن نعرف كيف انفردت اللغة العربية بهذه المزية النادرة ؟ هل هى مزية من مزايا المصادفة لا تعرف لها علة طبيعية ؟ أو هى نتيجة من نتائج التطور الطبيعى ، أو نتائج الاختيار بين الأفصح من اللهجات وبين اللهجات التى دونها فى الفصاحة على ألسنة المتكلمين بلغة واحدة ؟